المشرق

الرئاسة البطرسيَّة في ديناميس رومية

للاب لويس جلابرت اليسوعي

انَّ شهر حزيران ينتهي بذكر ذينك الرسولين المجيدين اللذين اسَّسا النصرانيَّة على أركان لا تتزعزع الواحد كزعيم الكنيسة ورأسها المنظور ونائب المسيح على الارض والآخر كرسول الامم ومبشّر العالم. وهو العيد الذي يستعدُّ لهُ الشرقيُّون استعدادهم لاعظم المواسم الدينيَّة بالاصوام الطويلة والصلوات المتواترة لعلمهم انهُ بعد اعياد الربّ وامّهِ الطاهرة هو القطب الذي تدور عليهِ كنيسة المسيح

على انَّ نور الرسول الهامة يبهر في هذا النهار عيون المؤمنين فتراهم في الغالب يوجّهون الالحاظ اليهِ دون رصيفهِ واذا ذكروا بولس انَّما يكون ذلك عرضاً لوقوع استشهاد الرسولين في يوم واحد ولذلك يفردون لبولس تذكارًا خصوصيًّا لئلَّا يفوتهُ حقُّهُ من الاكرام. وكذا نفعل نحن ايضاً في هذه النبذة فنخصّصها بذكر الصفاة وتعريف مقامهِ الفريد في بيعة الله

على أنَّنا لا نقصد في هذه العجالة ان نبيّن رئاسة بطرس استنادًا الى اقوال الانجيل الصريحة او الى شواهد الآباء الاوَّلين وملافنة الكنيستين الشرقيَّة والغربيَّة جيلًا بعد جيل كسلسلةٍ غير منفصمة ترقى الى عهد المسيح. فانَّ هذه الادلَّة شائعةٌ يجدها القرَّاء في كتب عديدة فضلًا عمَّا نشرتهُ هذه المجلة مرَّةً بعد اخرى

بيد ان الله عزَّ وجلَّ اذخر في كنوز عنايتِهِ الصمدانية للمدافعين عن كنيستهِ اسلحةً جديدة ليدافعوا عن تعاليمها ويبيّنوا صحّة اقوالها بازاء اعدائها. نزيد بذلك الآثار الجليلة التي كانت مطمورة قبل عصرنا المنصرم في بطن الارض فاثارها قومٌ من اهل العلم واكتشفوا بها عالماً جديداً نطق من الاعماق بصدق معتقدات الكنيسة الرومانيَّة حتى انهُ امكن البعض ان يؤلفوا تعليماً مسيحيًّا اسندوهُ فقط الى هذه الشواهد الاثريَّة مع قطع النظر عمَّا احتوتهُ الكتب الدينيَّة (١

واذا قصرنا كلامنا هنا عن رئاسة القديس بطرس وجدنا في دياميس رومية بينات لامعة تؤيد معتقد الكاثوليك في هذا الخصوص وذلك في قرون النصرانيَّة الاولى حيث لم يمكن ان يُنسب للاحبار الرومانيين حبُّ الترفُّع والطمع في الرئاسة ما هو شاهد ساطع على انَّ النصارى الاوَّلين لم يخترعوا هذا الامر وانَّما تسلَّموه من اسلافهم كوديعةٍ ثمينة ائتُمنوا عليها ليجيزوها للخلف من بعدهم (٢ •

*

اذا ما تجوَّل الزائر في دياميس رومية بعد ان ازال عنها ردومها العلاَّمة دي روسّي وتلامذتهُ من بعدهِ او اذا دخل متاحف الواتيكان واستقصى آثارها قضى منهُ العجب لكثرة ما يلقاهُ في اثناء تجوُّلهِ من التصاوير التي تمثِّل القديسين بطرس وبولس. فانَّ عددها ينيف على المئة صورة بحيث يصحُّ القول انهُ ليس من صورة اخرى كرَّر المصورون رسمها كصورتي هذين القديسين. وربَّما صُوِّر بطرس وحدهُ او مع المسيح دون غيرهِ. فهذا التكرار في تصوير هامة الرسل ينطق بلسان حالهِ على ما كان لهُ في رومية من

---

١) راجع مقالة حضرة القس بطرس عزيز عن « سرّ الافخارستيا في العاديَّات المسيحية » (المشرق ٤ : ٦٧٣)

٢) قد راجعنا لتسطير هذه المقالة الكتب الآتية : J-B. de Rossi: 1°*Roma sotterranea* — 2° *Bulletino di Archeologia cristiana* = Spencer Northcote et W. R, Brownlow: *Rome souterraine* (trad. de P. Allard) = Garrucci : *Storia dell'arte cristiana* (6 volumes in-fol.) = H. Marucchi : *Eléments d'Archéologie chrétienne* (Desclée 1900 - 1903 = *Martigny* : *Diction. des Antiq. chrétiennes* (1889) = Peraté : *L'archéologie chrétienne.*

النفوذ والتقدّم منذ اوائل الكنيسة ولولا ذلك لما ظهر الداعي لتوفير هذه الصورة على هذا المنوال . هذا مع ما اخذتهُ يد الضياع او لم يُكتشَف حتى الآن ولا بدع انَّ المفقود اكثر من الموجود

ومن غريب امر صورة هذين الرسولين انَّها ليست كغيرها من صور الديامیس مبتكرةً مخترعةً كما تصوَّرتها مُخيّلة المصوّرين يتصرَّفون فيها كيفما شاؤوا على مثال رسمهم لصور السيّد المسيح او العذراء الطاهرة اللذين صوَّرهما المصوّرون ولم يتَّبعوا في رسمهما صورةً مألوفة بل اتَّخذوا لذلك ما رأوهُ اقرب الى ما تخيَّلهُ وهمهم فيهما (١ . والامر على عكس ذلك في صورة القديسين بطرس وبولس فانَّ التصاوير العديدة الباقية منهما تنبئ كلُّها بشخصَين عاشا بين اهل رومية فانطبعت

الشكل ٢ . تمثال القديس بطرس من القرن الخامس في كنيسة مار بطرس

١) قد ذكر قدماء الكتبة كاوسابيوس في تاريخهِ والقديس اوغسطينوس في اتّفاق الانجيليين

صورتهما في ذاكرتهم فرسموها كما عرفوهما بالعيان

واقدم ما وجد من ذلك نوطٌ من الشَبَه مصون في المتحف الواتيكاني عثر عليهِ بُلدِتّي (Boldetti) في مدفن دوميتيلاً الشهير والعلماء مجمعون على انَّ هذا الاثر من القرن الثاني للمسيح لما بينهُ وبين طريقة ذلك العصر من التشابُه في التصوير. ومن ثم تكون هذه الصورة قريبة العهد من تبشير الرسولين في رومية واستشهادهما في أيام نيرون

والنوط المذكور قطرهُ سبعة سنتيمترات ونصف حسن الضرب بيّن الهيئة. فيهِ رأسان متوازيان احدهما راس القديس بطرس كما يُرى في الآثار القديمة. اعني انَّ شعرهُ قصير جعد وكذلك لحيتهُ قصيرة متلوّية في هيئتهِ بعض الخشونة. وبازائهِ راس بولس الرسول في سحنتهِ إباء وعزَّة وهو اصلع الراس طويل اللحية. لا يصعب على الناظر اذا رآهما وقابل بينهما وبين صور الرسولين ان يعرفهما وان لم يُكتب اسمهما على هذا النوط (انظر الشكل ١)

ويؤيد قولنا وصف قديم لهيئة القديسين الرسولين بطرس وبولس نقلهُ نيقيفورس كالستوس في القرن الرابع عشر (ك ٢ ع ٣٧). عن كتب قديمة وجدها في خزانة كتب القسطنطينيَّة الملكيّة الغنيَّة بالمخطوطات ووصفهُ اطبق شيء لصورة النوط المذكور. قال : انَّ بطرس كان كثّ شعر الراس واللحية قصيرهما . وجههُ مستدير فيهِ بعض ابتذال وفي حاجبيهِ تقوّسٌ وانفهُ طويل القصبة مفرطح في طرفهِ . امَّا بولس فهو اصلع الجبين لحيتهُ طويلة مستقيمة وجههُ بيضويّ الشكل حاجباهُ قريبان من عينيهِ انفهُ مستطيل في سواء وفي هيئتهِ دقَّة ورقَّة كما هو مألوف عادة القوم الوسط ذوي البنية الضعيفة (راجع رسالة بولس الثانية الى اهل قورنتس ١٠ : ١٠) »

فهذا الوصف لعمري ينطبق الانطباق التامّ مع الصورة التي نحن في صددها. ولا عجب فان القديس باسيليوس كان سبق وكتب في القرن الرابع (الرسالة ٣٦٠ الى

والقديس باسيليوس في رسالتهِ ٣٦٠ وترتليانوس المعلّم في كتاب العفَّة انهُ كانت تُعرف في زمانهم صورٌ قديمة للسيد المسيح وللرسل ولاسيَّما القديسين بطرس وبولس الَّا انَّ هذه الصور التي اشاروا اليها فُقدت كلّها

الشكل ٤

الشكل ٥

الشكل ٤ . رأس الرسولين بطرس وبولس (عن اثر من القرن الثاني للمسيح)
الشكل ٥ . بطرس الرسول على صورة موسى يضرب الصخرة (عن اثر من القرن الثالث)

يليانوس) « انَّ كلَّ الكنائس كانت مزيَّنةً بصورة الرسولين بطرس وبولس وانَّ العادة في رسم صورتهما راقية الى زمن الرسل »

*

ولكن لا ترى فقط في تصاوير الديباميس صورة بطرس الرسول متواترةً بل تراها في الغالب مع الرموز الدالَّة على السيادة والسيطرة وذلك سواء كان بطرس وحدهُ او مع غيرهِ من التلاميذ او الانبياء او المسيح نفسهِ

١ بطرس وحدهُ اذا مُثِّل هامة الرسل منفردًا رأيت في يدهِ المفاتيح المؤذنة برتبتهِ السامية اشارةً الى قول الرب: « واعطيك مفاتيح ملكوت السماوات » . وفي بعض الاحوال ترى المسيح عينهُ مصوَّرًا وبيدهِ الالهيَّة يسلِّم تلميذهُ المنحني امامهُ المفتاح الرمزيَّ او يقلِّدهُ مفتاحين او ثلاثة مفاتيح . والصور الممثِّلة لذلك عديدة نكتفي بذكر واحدةٍ منها هي بمكان من القدم وجدها بُتاري الاثريّ الشهير على ناووس يرتقي عهدهُ الى القرن الثالث

ولنا من هذا القبيل مثال في ذاك التمثال البديع الذي يُرى في صحن كنيسة القديس بطرس في رومية تحت قبَّتها الشاهقة وهو من الشبه (البرنز) يرقى عهدهُ الى القرن الخامس للميلاد ولبطرس صورتهُ التقليديَّة المألوفة وهو جالسٌ على كرسي السيادة وفي يدهِ المفاتيح كما ترى في الشكل الثاني (الصفحة ٥٧٩)

٢ بطرس مع بولس قلنا في ما تقدَّم انَّ الصور التي فيها القديسان الرسولان لعديدة جدًّا . ومن جملتها الاقداح التي كان يشرب فيها المسيحيُّون الاوَّلون في حفلاتهم الدينيَّة ايَّام الاعياد . فان هذه الأقداح كلَّها من الزجاج الملوَّن بالتصاوير . امَّا التصاوير فرُسمت على صفائح رقيقة من الذهب وجُعلت بين طبقتين من الزجاج وقايةً لها . والاب غاروشي اليسوعيّ قد نشر هذه التصاوير في كتابهِ الفريد عن العاديَّات النصرانيَّة وعددها لا يقل عن ٣٤٠ قدحًا منها ٨٠ تمثِّل صورة الرسولين بطرس وبولس امَّا منتصبين وامَّا جالسين مع اسميهما (PETRVS, PAVLVS). ولئلاَّ يُخدع احد في مرتبة القديس بطرس بالنسبة الى بولس ترى المصوِّر يجعل لبطرس علامات تميِّزهُ عن رفيقهِ . فاذا كانا منتصبين يُرى طرف ثوب بطرس مزيَّنًا بالدرر والحليّ دون بولس . واذا كانا جالسين ترى بطرس جالسًا على كرسيّ السلطة

مستنداً اليهِ كالسيِّد امَّا بولس فهو جالس على مقعد لا سند لهُ. واذا مُثِّلا متكلمين متباحثين ترى في الغالب بطرس يتكلَّم دون بولس وبولس ينصت اليهِ كالتلميذ الى معلمهِ ويؤمن على قولهِ او يقبل منهُ كتاباً يسلمهُ لهُ بطرس ليحتفظ عليهِ . وفي كل هذه الحالات كما ترى دلائل واضحة على رئاسة بطرس اقرَّ بها المسيحيون الاوَّلون في وقت الاضطهادات فدوَّنوها بالرسم لمَّا كانوا يحتجبون في هذه الديناميس

٣ بطرس مع بقيَّة التلاميذ بين الآثار المسيحيَّة القديمة المكتشفة في الديناميس وغيرها عدَّة نقوش وتصاوير تمثل بطرس مع الاثني عشر وفي كلّها لبطرس امتيازات شرفيَّة تدلُّ على تقدُّمهِ عليهم. فيُرى حيناً لابساً شبه التاج بينما يكون بقيَّة الرسل مكشوفي الرأس كما في جرن العماد القديم المحفوظ في مدينة راڤنة. وحيناً ترى حول رأسهِ اكليلاً من النور وذلك حتى في حضور السيِّد المسيح الممتاز بمثل هذه الدائرة النوريَّة

٤ بطرس والمسيح اذا مُثل المسيح في هذه العاديات حاضراً

الشكل ٣. المسيح يسلِّم للقديس بطرس ناموسهُ (عن اثر من القرن الثالث)

بين تلاميذهِ تراهُ يختصُّ بطرس ببعض الاختصاصات الدالَّة على رئاستهِ فتارةً يسلّمهُ المفاتيح كما سبق. وتارةً يعهد اليهِ بكتاب ناموسهِ كما كان يفعل ملوك رومية اذا قلَّدوا عمَّالهم عملًا ما فكانوا يسلّمونهم دستور الدولة. مثال ذلك ناووس جميل النقش يُحفظ في المتحف اللاتراني تاريخهُ من عهد قسطنطين الكبير. وفي احد وجوههِ المسيح وعلى جانبيهِ بطرس وبولس. فالربّ يقدّم لهامة الرسل دَرْجًا يحتوي شريعتهُ فيقبلهُ بطرس منهُ تعالى على غطاء يستر يديهِ مشيرًا بذلك الى اجلالهِ للكتاب

وفي بعض العاديَّات قد كُتب على الدَّرْج هذه الالفاظ DOMINVS DAT LEGEM « اي « يعطي الرب ناموسهُ » اشارةً الى ناموس الرب المعطى اوَّلًا لموسى على طور سينا ولبطرس كبير احبار العهد الجديد. ويُرى بطرس في بعض الآثار حاملًا صليبهُ على منكبيهِ كأنهُ بلسان حالهِ يجيب المسيح بانهُ مستعدّ ان يبذل نفسهُ للموت دون ربّهِ ليحفظ الوديعة التي استُودعها وفي اعلى الصورة كلمتان يونانيَّتان كُتبتا باللاتينيَّة « PIE ZESES » اي « عِشْ بالتقى » هما كوصيَّة السيد المسيح لتلميذهِ ليكون قدوة لمرؤوسيهِ (انظر الشكل الثالث في الصفحة ٥٨٢)

وممَّا امتاز بهِ بطرس في بعض الصور التي تمثِّل المسيح عصا الرعاية او صولجان الملك

الشكل ٤. بطرس وبيدهِ عصا الرعاية (عن اثر من القرن الرابع)

الذي يمسكهُ بيدهِ دلالةً على سلطتهِ السامية . كما ورد في ناوُس نُقش في القرن الرابع ويُحفظ في المتحف اللاتراني . وصورة بطرس في هذا الناوُس مرَّتين المرَّة الاولى يُرى امام المسيح الذي يُعلم تلميذهُ بانهُ سيجحدهُ ثلاثاً وبطرس هناك واقف امام المسيح وبيدهِ عصا الرعاية وعند أقدامهِ الديك المشير الى جحودهِ . ثم بقرب هذه الصورة الاولى صورة ثانية يُرى فيها بطرس في وسط جنديين من جنود هيرودس اغريبا وهما يقودانهِ الى السجن لكنَّ بطرس لا يزال حاملًا في يدهِ الصولجان كانهُ يريد بذلك انَّ ليس من قوَّة بشريَّة تنزع عنهُ السلطة المعطاة لهُ من المسيح (انظر الشكل ٤ في الصفحة ٥٨٣)

٥ (بطرس وموسى) لا يجهل احدٌ انَّ موسى كليم الله كان قُلّد امر اسرائيل ليقودهُ ويسوسهُ ويدخلهُ ارض الميعاد ولمَّا كان شعب الله رمزًا عن كنيسة المسيح والمؤمنين بهِ اقتضى ان يكون بطرس بمثابة موسى يقود المسيحيين الى ارض ميعاد الابرار وفردوس الصديقين . وهكذا اعتبرهُ النصارى الاوَّلون فجمعوا بينهُ وبين موسى النبي في صور الديامس وجعلوا في يدهِ عصا موسى التي غلبت سحر المصريين واجرت المياه من الصخرة الرموز بها عن المسيح (كما جاء في رسالة بولس الاولى الى اهل كورنتس ١٠ : ٤)

وقد تفنَّن مصوّرو الديامس في هذه المقابلة بين بطرس وموسى فتارةً يمثّلون في الصورة نفسها موسى النبي وبطرس الرسول . ولكل منهما علامةٌ تدلُّ على رئاستهِ . ففي مدفن القديس كالستوس صورةٌ نُقشت في القرن الثاني للمسيح يُرى فيها على احد طرفيها موسى الكليم وهو يضرب الصخرة بعصاهُ وفي الطرف الآخر بطرس جالس على صخرة وهو يصطاد السمك اشارة الى قول المسيح لهُ (لوقا ٥ : ١٠) : « لا تخف هاءنذا جعلتك منذ الآن صيَّادًا للبشر »

وتارةً يمثلون موسى وحدهُ ضاربًا للصخرة . ولكن لئلاَّ يفوت احدًا انَّ ذلك لرمزٌ عن المسيح الذي هو الصخرة وعن بطرس قائد الشعب المسيحي الذي يسيل ينابيع النعم بعصاهُ اي بالسلطة المطلقة المعطاة لهُ من الربّ ترى موسى مصوَّرًا بهيئة بطرس المعروفة التي وصفناها سابقًا

وفي بعض هذه الصور ما هو اجلى بيانًا من ذلك فانَّ في احد نواويس المتحف

اللاتراني بعد ان صُور موسى ضاربًا للصخرة ترى بطرس الرسول يقيّدهُ جند هيرودس وهو يشير باصبعهِ الى الصخرة المضروبة والى المياه الجارية منها كانهُ يقول لهم انَّهُ هو موسى الذي يسقي شعب الله بمياه الحياة

وترى بعض الاحيان الواقع المذكور منسوبًا الى بطرس وحدهُ دون موسى. ففي احد الاقداح التي سبق ذكرها وهو في متحف الواتيكان صورةٌ تمثل القديس بطرس ضاربًا الصخرة بعصاهُ واسمهُ باللاتينيَّة عند رأسهِ لئلَّا تبقى شبهة في انَّ بطرس هو موسى العهد الجديد (انظر الشكل ٥)

فمما تقدَّم يرى القارئ ما لهذه العاديَّات من القوَّة في تعريف رئاسة بطرس على الكنيسة جمعاء فان كان النصارى الاوَّلون في القرون التابعة للميلاد يعتبرون بطرس هذا الاعتبار ويكرمونهُ ليس فقط كرسول جليل بل كإمام عظيم خوَّلهُ الربّ ملء السلطة على كل اغنامهِ الناطقة وجعل في يدهِ صولجان الملك واقامهُ كموسى لقيادة شعبهِ المختار فمن يتجاسر ان ينكر هذه العقيدة او يجعل هذه الرئاسة شرفيَّة محضة او يعزو هذه السلطة لاختراع بشريّ مستحدث فيكذّب الكاثوليك في صحَّة ايمانهم ؟ ولو لم يتقرَّر لدى القدماء من المصوّرين انَّ هذه السلطة إلهيَّة لا ينكرها احد وان المسيح نفسهُ اعطاها لرسولهِ لما اتَّفقوا في نشر ذلك على وجوهٍ متنوّعة. فلا بُدَّ اذن من القول انَّ رئاسة بطرس على كل الكنيسة احدى المعتقدات التي اخذها المؤمنون من الرسل انفسهم وان الرسل تعلَّموها من المسيح. وتزيد على قولنا ان الامر كان شائعًا حتى عند الوثنيين فضلًا عن النصارى فانَّ اوريجانس المعلّم في كتاب ردّهِ على كلسُس (ك ٢ ع ١١) يخبر عن فلاغون (Phlegon) احد مشاهير كتبة الرومان انهُ لمَّا كتب عن المسيح « اقرَّ معترفًا بانَّهُ سبق وعرف امورًا قبل وقوعها الَّا انَّهُ وهم باسم المسيح ودعاهُ بطرس(١ » فبيَّن بنفس وهمهِ ما كان لبطرس من علوّ المقام حتى ان الوثنيين كانوا يجعلونهُ بدلًا من المسيح ويدعون المسيح باسمهِ. والسلام

---

١) وهذا قولهُ بعرفهِ « Rerum quarumdam futurarum præscientiam Christo tribuit, *quamvis erret in nomine, Petrum pro Jesu appellans* » (*Orig. contra Celsum* II, 14)